9

زيارة مع بريجينيف

بريجينيف وزعماء الكرملين

أن تـزور موسكو أثنـاء الحرب الباردة يعني أن تعاني مشاعر وردود أفعـال متناقضة كثيرة. أي مطلع علـى تقارير المخابرات يعرف الترسانـة الضخمة والمتنامية باستمرار من الأسلحـة النووية السوفييتية التـي يمكنها أن تدمـر بلادنا، والحضارة نفسها أيضـاً. ولا يستطيع المرء أن ينسـى أن العقيدة السائدة لدى الكرملين تدعي الانتصار التاريخي الحتمي للشيوعية أو أن سياسته العملية قد ولّدت معظم الأزمات والمجابهات في العقود التي تلت الحرب.

علـى الرغـم من هذه الوقائع الثابتة، فإن كل اجتماع بين كبار المسؤولين في الدولتين العظميين ـ ولا سيما بين رئيسيهما ـ يجدد الأمل الكبير بأن نصف قرن من النزاع يمكن تسويته في غضون أيام قليلة من تبـادل الآراء. رغـم كل اللعنات والمجابهات في تلك الفترة، فلا يوجد زعيـم في العصر النووي يمكن أن يرفض فرص السلام، أو يتخلى عن مسؤوليته لإنقاذ الحضارة.

لهـذا قد يفاجئ المرء بشدة عنـد الوصول إلى موسكو بالتعارض ما بين ادعـاءات الدولة الشيوعية وواقعهـا. تقارير المخابـرات تنقل صوراً مخيفة عن القـوة العسكرية الهائلة فـي خدمة تصرف حقود. ولكـن أي واحـد قام بزيارة رسمية إلى الاتحاد السوفييتي حتى لـو كان يحظى بمركز شخصية رفيعة، لا يمكـن إلا أن يخـرج بانطباع أن كل مرحلة البناء المحكمة في خطر ويمكن أن تنهار في أية لحظة. فخلف واجهـة الكرم يسري ذعر يؤدي فـي النهاية بالشيوعية إلى حائط مسـدود أو عنق الزجاجة بحيث تنهار في النهاية.

الضغـط علـى مجتمع غير مهيأ للعفوية لا بد أن يلعـب دوره ويدفع الثمن. فرغم قوة موسكو العسكرية وقسـوة حكامها بـل ووحشيتهم، فإنك إذا نظرت إلى هذه البلاد بعمق تشعر أنها بحالة احتضار. ومع هذا فـإن السيناريوهات الأمريكية المرعبة حول المعركة الفاصلة تعود إلى الخشية من التوسعية المعروفة في التاريخ السوفييتي.

لقاءاتـي الأولية مع الزعماء السوفييت في السبعينيات عززت لدي هذه الانطباعات. الحكومة الثلاثية في الكرملين خلال فترة نيكسون كانت مجموعة من البراكين شبه الهامدة: الأمين العام ليونيد بريجينيف المهذار الذي لم تكن بشاشته تخفي عدم شعوره المستتر بالأمن، والمناور البيروقراطي المثقف، المتحفظ رئيس الوزراء الكسي كوسيغين، والرئيس نيكولاي بودغورنـي الذي يعمل في الداخل ولا يهتم بالسياسة الخارجية، والـذي كان لا يميل إلـى زيارتنا إلا كإشارة حسـن نية. وبقدر اختلاف هـؤلاء الزعماء الثلاثة ــ ومهما كانـت المنافسة فيما بينهم ـ فقـد كان سلوكهم يفتقر إلى الحيوية الداخليـة، مما يجعلهم أشبه بممثلين يقومون بأدوار مرسومة. ولعل ما جمع بينهم هو إبعاد ستالين والكفاح ضد ألمانيا النازية.

ومـع أنني تقابلت عدة مرات مع هذا الثلاثي، بعـد مضي أكثر من عقدين على وفاة ستالين، فقد كان انطباعـي دوماً أن الدكتاتـور الوحشي قد تركهم يفتقرون إلى المبـادرة والطاقة الذهنية. جميعهم حقق خطوته الكبيرة في سلم الحزب البيروقراطي أثناء اضطرابات الثلاثينيات حين كان ستالين يقضي على كل زعيـم بـارز من أبناء جيله. فبعد أن شهد هؤلاء الثلاثة إعدام أولئـك الذين صنعوا الثورة ـ فقد كانوا يعرفـون أكثر مـن أي شخص آخر معنـى الانصياع، وحرصوا علـى ألا يخاطروا بمناصبهـم، وأن يتركوا طموحاتهـم تحترق داخل نفوسهم. لقـد ترفعوا بسرعة أكبر مما كانوا يحلمـون، ولكنهم دفعوا الثمن من خـلال الشكـوك حول شرعيـة وصولهم إلى السلطة. عندمـا كان ستالين حياً كان الذيـن نجوا من أعمال التطهيـر ضحايـا تعطشه للدماء وأهدافـاً لحبه إذلال معاونيـه وتابعيه. لم يشهد أي واحـد منهم انتقالاً شرعيـاً للسلطـة، كل زعيـم سوفييتـي سابق إما مـات وهو في السلطـة، أو أُطيح به، كما فـي حالة نيكيتا خروتشيف، بمؤامرة من مساعديه المقربين ـ وهم الزعماء الذين كنت أقابلهم باستمرار في الواقع.

المنصب الرفيع في الاتحاد السوفييتي لم يكن مجرد طموح، كان شرطاً أولياً للنجاة في ظل أي وضع. وعندمـا يستقيـل مسؤول كبيـر ـ وهذا أمر نادر جداً ــ أو يخسر في معركة داخليـة فالنتيجة هي انحدار شديـد أولاً في مركزه ويلي ذلك مباشرة انخفاض مستواه المعيشي. في المجتمع السوفييتي «اللاطبقي»، يعتمـد المركـز، كما في المجتمعات الاقطاعية، على الوظيفة الرسميـة، التي توفر له الوصول إلى الرخاء الشخصـي الـذي يأتـي ـ ويذهب ـ مع المركز الرفيـع. ولعل أصعب شيء هو الشعـور بنبذ المجتمع له مع فقدانه لمنصبه الرسمي.

أثنـاء قمـة موسكو في شهـر أيار 1972 لاحظت ظاهـرة مؤثرة حول هذه الوقائع. فـي حفل استقبال ضخـم فـي «قاعة سـان جورج» فـي الكرملين، كان قسـم من هذه القاعـة الضخمة مخصصـاً للمكتب السياسـي وللأعضاء الكبار في الوفد الأمريكي. لاحظ أحدُ الأمريكيين العجوزَ أنستاس ميكويان ـ رفيق ستاليـن وعضـو المكتب السياسي لعدة عقـود ـ وسط الجمهور الآخر من القاعـة. ترافق عمله مع تاريخ الشيوعيـة، ولكن نجمـه بدا يأفل منذ سقـوط خروتشيف. كان ميكويان يقف وحيـداً وسط مجموعة من

openkandl.com

صغار المسؤولين السوفييت الذين كانوا يتجنبونه، وبعض الصحفيين الأمريكيين الذين لم يعرفوهُ، أو كانوا مترددين في الاقتراب منه. وشعوراً منهم بالتعاطف دعا الأمريكيون الزعيم السوفييتي السابق إلى الانضمام إلى حلقة كبار الضيوف. حائراً بين الزهو والخجل سمح ميكويان لنفسه أن يدخل في تلك الحلقة التي كانت في يوم من الأيام حلقته. لقد كان خطأً. إذ لم يلتفت إليه أي من زملائه السابقين من أعضاء «المكتب السياسي» ـ وجميعهم كانوا حتى وقت يعملون معه أو تحت إمرته. بعد لحظات مؤلمة انكمش وعاد إلى عزلته.

كل موظف سوفييتي مسؤول مر بحالات مشابهة. مهما كان مستواه فإن القوة الدافعة في النظام السوفييتي أن تصعد السلم السياسي بأمان وتسبق غيرك إلى منصب ما، تحوذ عليه. ولدى الموظفين السوفييت مهارات في الأعمال التي يعتقدون أنها الأكثر إبداعاً. ولكنهم يدفعون ثمن هذا بالافتقار إلى الخيال في مسائل الاستراتيجيا الكونية. لقد حشد الجيل الذي حكم الاتحاد السوفييتي في السبعينيات سلطة عسكرية وجيوسياسية أقل تعبيراً عن الأهداف الجيوسياسية بعيدة المدى مما يتوفر لهم. من المحتم أن السعي نحو القوة في حد ذاتها قد أفرغ معظم العالم غير الشيوعي وأوجد تحالفاً ضمنياً بين جميع الدول الصناعية والصين ضد الاتحاد السوفييتي مما جعل سقوطه النهائي حتمياً.

في عشر ساعات من الحديث مع بريجينيف واجهت إفراطاً في الذرائع التكتيكية، ولكنني لم أجد أبداً ما يشبه خطة سياسية. ولما كان موضوع الصين مستحوذاً على تفكيره فقد راح يطرح اقتراحات تتضمن (كما سنناقش) كوندومنيوم سوفييتي ـ أمريكي عالمي موجه إلى جاره الضخم، رغم أن الدائرة المحيطة به سرعان ما تأكد لها أننا نرفض الاقتراح أو أي شيء يشبهه. وهو يسترسل في مطالعات مطولة، ثم ينتقل إلى موضوع آخر، دون إبداء رغبة في الحيلولة دون وقوعه.

قبل تفكك السلطة التنفيذية الأمريكية تحت تأثير فضيحة ووترغيت، كان بريجينيف يعطي الأولوية لتخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب. ووافق ـ مع بعض التذمر ـ بتقليص نفوذ موسكو في الشرق الأوسط، ولم يقم بأي جهود أثناء فضيحة ووترغيت لاستغلال ضعف نيكسون في الداخل. والى جانب اهتمامه بالكوندومنيوم النووي الموجه ضد الصين، كان اهتمامه الرئيس أن يحوز على موافقة أمريكية للانضمام إلى «مؤتمر الأمن الأوروبي». لم يكن هناك أية مسوغات تذكر في هذه المحاولة من جانب قوة عظمى تملك آلاف الأسلحة النووية لتحقيق شرعية حدود مضمونة مسبقاً من خلال سلسلة من معاهدات السلام الثنائية، وحيث لم يكن أي جار للاتحاد السوفييتي في وضع يمكنه من تحديه عسكرياً. ومع هذا كان بريجينيف حريصاً على هذا الاعتراف في شكل وثيقة، ويوفر الآلية لتفكيك نطاق نفوذ الاتحاد السوفييتي عن طريق توفير أساس شرعي لوحدة ألمانيا وإيجاد منبر يستخدمه الوطنيون الشرق أوروبيون لمتابعة مساعيهم من أجل تحقيق حقوق الإنسان.

بعد انهيار الانفراج تعمد بريجينيف إحداث عدة خروقات على نحو متزايد، وبدأ يستعرض الطاقات السوفييتية العسكرية في إفريقية واليمن الجنوبي، وأفغانستان. لقد كان توسعاً انتهازياً باستغلال أوضاع لم يصنعها السوفييت. ويدعي دوبرينين أن بريجينيف كان تحت ضغط الجناح العقائدي في «المكتب السياسي». ومع هذا، إذا لم ندقق في هذه المسألة، فقد كان الموقف بمثابة السعي إلى هيمنة عالمية[1]. وعملياً إن ما حصل أن النتيجة الأساسية للتوسعية الجديدة هي استنزاف الموارد السوفييتية، وزيادة هشاشة الاتحاد السوفييتي الطويلة، ولا سيما بعد أن انطلقت إدارة ريغان بالتوسع في بناء القوات المسلحة الأمريكية.

خبرة جيل الزعماء السوفييت الذين نجوا من الحرب العالمية الثانية عززت أولوية التدرج على المجابهات التدميرية. العالم الخارجي قد ينظر إلى الاتحاد السوفييتي على أنه بلاد ضخمة حقودة، ولكن قواده لا يمكن أن ينسوا كيف كانت النتيجة. لقد انتصر الاتحاد السوفييتي بعد أن فقد 27 مليون إنسان والتخريب الكامل لثلث البلاد. والزعماء السوفييت الفخورون بانتصارهم النهائي ليس لديهم الرغبة في أن يجربوا حرباً مدمرة مرة أخرى.

لم يفلح بريجينيف الشديد والمتبجح عامة في إظهار السكينة أو العاطفة. كان موقفه من الولايات المتحدة يتأرجح بين الرعب والحسد. كان بريجينيف يعتبر بمثابة جائزة أن يسيء إليه أي خصم رأسمالي يكره الشيوعية. لذلك فإن سلوكه لم يكن منسجماً دوماً من ادعائه الروتيني بتفوق النظام الشيوعي. في أيار عام 1973 دعاني بريجينيف إلى بيت الاستجمام التابع للمكتب السياسي في زافيدوفو (يبعد نحو 90 ميلاً عن موسكو) كي يهيء لزيارته الولايات المتحدة في حزيران. كانت لقاءاتنا اليومية المطولة تبدأ باستمرار بالتأكيد على أن يُعامل على أساس المساواة. وكنت أؤكد دوماً على جميع المسؤولين على أن يعامل بريجينيف على قدم المساواة. وتأكيدي هذا جعله ينهض من مقعده ويدور حول الطاولة ويعانقني. من أجل هذا السبب فإن مركز «الدولة الأولى بالرعاية» بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي لم تكن عند بريجينيف مجرد مسألة تفاوض تجاري، بل امتحان لموقف أمريكا الأساسي من بلاده.

كان بريجينيف على اطلاع جيد على الشؤون العسكرية والاقتصادية، ومع هذا نادراً ما كانَ يخاطر بوجهة نظر مستقلة. وعندما تظهر مشكلة فنية فإنه نادراً ما يجيب قبل التشاور مع الجانب السوفييتي على الطاولة. وعندما تصرف بريجينيف من تلقاء نفسه، كما فعل في المفاوضات الأولية لاتفاقية SALT مع نيكسون عام 1972 في قمة موسكو، سرعان ما يجد نفسه يواجه صعوبات بحيث ينبغي أن يتنصل منها (وهي عملية مجهدة في نظام شديد التراتبية كالنظام السوفييتي)[3]. وفي الموضوعات الجيو ـ سياسية، لا يطرح وجهات نظر عميقة أبداً ولا يفعل عادة سوى أن يضيف تأييده لموقف حكومته الذي أعده غروميكو مسبقاً ـ ولكن بطريقة أكثر حذاقة ومرحاً. وبريجينيف، بوصفه «أميناً عاماً» لديه السلطة لتجاوز العقبات

obeikandl.com

الدبلوماسيــة، وهو قد فعـل ذلك أحياناً، وهذا ما نلاحظه في قمة فلاديفـو ستوك في ت2 1974 مع فورد عندمـا فرض رأيه على وزير الدفـاع أندريه غريتشكو علـى الهاتف، بحسب روايـة دوبرينين[4]. وخلافاً للمفاوض السوفييتي التقليدي يسرد بريجينيف بعض النكات أثناء المناقشات قد يكون لها صلة أو لا يكون بالموضوع المطروح.

تجري معظم المفاوضات الرسمية في غرفة اجتماعات المكتب السياسي في الكرملين وهي غرفة تشبه الكهـف غامقـة اللون، طولها 60 قدماً وفيها مائدة طويلة وخلفها مكتب ضخم، ربما مقر عمل بريجينيف، وأمـام كل مقعد على المائدة يوجد مكبر للصوت لا لتكبير الصوت فحسب بل ولتسجيل أحاديث مفاوضي بريجينيـف. وقد اتضح هذا عندما ضغط الفني السوفييتـي على الزر الخطأ وسمع الجميع تعليقاً همست به لهيلموت سوننفيلد المستشار في وزارة الخارجية الذي كان جالساً بقربي.

كان بريجينيـف يعتبـر الاستماع إلى أُطروحـات بلغة لا يفهمها مضيعة للوقت. فكنـت حين أتوجه ليه بالحديـث ينهض عن الطاولة أثناء حديثـي ويتجول في الغرفة، ويوقع أوراقاً، ويتحـدث بالهاتف أو يمزح مـع زملائـه بهمس مرتفع الصوت. وعندما أنجـز بياني أمام كرسيه الفارغ يعـود بريجينيف إلى المائدة للاستمـاع إلـى الترجمة. وبعد أن يعطـي جوابه، يستأنف التجوال في حين يتابـع مترجمه اللامع، فيكتور سكودروف، ترجمة ملاحظاته إلى الإنكليزية.

لـم يكـن بريجينيف يتحلى بصبر غروميكـو عندما يتحدث إلى محاوره. فالمـداولات الفنية المطولة تتعبـه بشكل ملحوظ. وكان يتأكد من الحصـول على تأييد المكتب السياسي قبل أن يقدم تنازلات. وهكذا كان مـن الحكمة التخطيط لاجتماعات تهدف إلى اختـراق بالنسبة إلى موسكو، ولما كانت هذه الجلسات تطـول بسبب الاعتراضات المطولة أثناء اجتماع المكتب السياسي، وعندما يمارس بريجينيف صلاحياته فإنه يبدو نافد الصبر من أجل الوصول إلى نتيجة. هكذا كان الوضع في قمة موسكو في نهاية أيار 1972، ثم في فلاديفوستوك في ت2 1974، وأخيراً في التحضير لمؤتمر الأمن الأوروبي في هلسيسنكي في صيف عام 1975.

موقف الكرملين من الانفراج

زيارتـي لموسكو في الفترة ما بين 23 ــ 27 ت1 1974 كشفت عن الفجوة العريضة والمتزايدة ما بين الحكمة التقليدية في واشنطن وما تدركه موسكو. وسائل الإعلام الأمريكية، وكثير من أعضاء الكونغرس، وبعض أعضاء إدارة فورد يذعنون على نحو متزايد لمنتقدي الانفراج بوصفه شارعاً ذا اتجاه واحد تقدم فيه التنازلات الأمريكية الكثيرة من أجل نية موسكو الطيبة التي هي وهمية وغير واقعية.

ولكـن في موسكـو يسمع المرء العكـس تماماً. في أي جزء مـن سياسة الشرق والغـرب كان الزعماء السوفييـت قادريـن على تحديد أيـة فائدة لهم. و«التسويـة» لقضية منح مركز الدولـة الأولى بالرعاية /

مقابل الهجرة كما أعلن عنها جاكسون قبل أن أغادر اعتبرت مهينة. لقد اسُتبعد الاتحاد السوفييتي من دبلوماسية الشرق الأوسط. و«مؤتمر الأمن الأوروبي» كان يتقدم ببطء السلحفاة وربما يعود هذا جزئياً إلى أننا كنا نحاول اكتساب أكثر ما يمكن، من ارتباط. واقتراح بريجينيف إلى نيكسون حول سيادة نووية مشتركة لم يلق جواباً من فورد. ولم يبق غير اتفاق SALT والذي أصبح على نحو متزايد وسيلة كي يعزز كل طرف برنامجه الاستراتيجي الأحادي.

من بين زياراتي المتعددة إلى الاتحاد السوفييتي، اتسمت رحلة شهر تشرين الأول تلك للتحضير لقمة فلاديفوستوك، بلين العريكة، وأحياناً بالسوداوية. استمر كل طرف لأسبابه الخاصة بالتظاهر، بل والاعتقاد إلى حد ما أنه يشهد انحرافاً عن الطريق القويم مؤقتاً وباستطاعته أن يعد له. كان المفاوضون الأمريكيون يعون جيداً أن التأييد الداخلي للانفراج يتآكل. ولكن كنا متأكدين أيضاً أن الرئيس الجديد يحتاج إلى فترة من الهدوء كي يُعد نفسه، ولهذا عملنا على إنقاذ أي ترابط منطقي نستطيعه عن طريق مفاوضات SALT ـ المفاوضات الأساسية التي ما تزال دائرة.

الوضع السوفييتي كان أكثر تعقيداً. فوفقاً لقواعد الحرب الباردة التقليدية، كانت فضيحة ووترغيت تمثل فرصة نادرة للتوسع السوفييتي. ولكن لم يحدث أي تحد حقيقي حتى الآن. لم يحدث إلا عندما رفض السوفييت التعرفة التجارية كما عدّ لها جاكسون وستيفنسون، وسقوط الهند الصينية، وقطع الكونغرس للمساعدات عن القوى غير الشيوعية في أنغولا التي كان الكرملين قد شرع بها بطريقة فيها الكثير من المغامرة.

كان هدفنا أن يظل هدوء الكرملين أطول فترة ممكنة. كنا جميعاً نعي الوضع أكثر من الكرملين لحسن الحظ. إن وجود كونغرس ليبرالي غير مريح تكثر فيه الانتقادات، ورئيس بدأ لتوه في تأسيس سلطته، كان من غير الممكن حدوث مجابهات طويلة. وكان لدى موسكو بالطبع القدرة على إثارة التوترات وتفاقمها في الشرق الأوسط، وهناك فرص كثيرة لتأييد المتطرفين ورجال حرب العصابات في العالم الثالث.

في شهر ت1 1974 لم يكن أي من هذه التحديات قد ظهر بعد. وأحد الأسباب كان انحدار السلطة التنفيذية الأمريكية بشكل مُقلق جداً لنا ولم يدركه القادة السوفييت. في الجزء الأفضل من السنتين بدوا يتوقعون عودة سريعة إلى الوضع الطبيعي مما كان يعني لهم ضغوطَ وتفادي الضربات في سنوات نيكسون. منتقدو الانفراج سيقولون بالطبع إن الإصرار السوفييتي يعكس المكاسب الكبيرة التي حققها الكرملين ـ وهي فوائد ما زلت أجهلها حتى من بداية العقدين. في تلك المرحلة كانت جهود بريجينيف ما تزال تتركز حول موضوع المركز (مركز الدولة الأولى بالرعاية)، والذي كان في حد ذاته علامة عدم شعور بالأمن، نظراً لأن الذين يعرفون أنفسهم بأنهم مساوون حقاً لا يطلبون شهادة دائمة عن تلك الحقيقة.

والأهم من ذلك كله أن التزام بريجينيف بالانفراج قد يخضع لتحذير أولي إلى ما يمكن أن يصبح أزمة قاتلة للدولة السوفييتية. ذلك لأن تاكتيكات الكرملين الخرقاء نحو جيرانه قد دفعت، كما لاحظنا،

جميع دول العالم الصناعية الكبرى بالإضافة إلى الصين إلى التحالف ضده. وكما أشار خلفاء بريجينيف بمرارة شديدة، فإن هذه كانت حماقة تاريخية[5]. في هذه الظروف كان إصرار بريجينيف على استمرار الانفراج يرمي إلى شق، أو على الأقل إيقاف، الشراكة الاستراتيجية الصينية ـ الأمريكية المتنامية.

معظم مشكلات أمريكا كانت مؤقتة ويحتمل تجاوزها مع الوقت. ولكن في تنافس القوى العظمى فإن الاتحاد السوفييتي كان الطرف الأضعف. فمع اقتصاد جامد، وناتج قومي إجمالي GNP يصل في أحسن الأحوال الى40% من ناتج الولايات المتحدة، فإن موسكو لا يسعها إلا أن تنافس عسكرياً مع انخفاض المستوى المعيشي لسكانها الذي سيثير عاجلاً أم آجلاً أسئلة حول صلاحية النظام الشيوعي نفسه. وحتى في ذلك المستوى من الحرمان المدني، فإن سباق التسلح قد أحكم الطوق على الطاقة الصناعية السوفييتية ذاتها. في العمق لا بد أن يشعر القادة السوفييت عكس ما يشعر به منتقدو إدارة فورد في الداخل الذين يزعمون: إحساس أقل بالتفوق بدلاً من التعرض لتهديد حشد الطاقة التقنية والصناعية الأمريكية كلها. جميع ابتكارات السوفييت عن الحتمية التاريخية للانتصار الشيوعي يعاكس سيناريوهات منتقدينا المتشائمة، فالوقت كان في جانب أمريكا.

من الواضح أن بريجينيف كان يعتقد أنه يستطيع أن يعالج أزمته بزيادة العلاقات الاقتصادية مع الغرب وبذا ربما يستطيع تجنب الحاجة إلى إصلاح جذري. ولكن الإجراءات الموضوعة لم تكن كافية لمعالجة الضعف الأساسي بشكل مؤثر لنظامه. فعاجلاً أم آجلاً كان على السوفييت أن يواجهوا ما دُعي بمأزق ميخائيل غورباتشيف الذي لا حل له: النظام السوفييتي لا يمكن أن يستمر بدون إصلاح، ولكنه أصبح شديد الإصابة بتصلب الشرايين بحيث يستحيل القيام بعملية الإصلاح بنفسه.

من المؤكد أنه إذا سُمح للاتحاد السوفييتي أن يكدّس القوة العسكرية بدون رد أمريكي حاسم، أو إذا حاولت الولايات المتحدة التخفيف من حدته التوسعية، فقد يحاول السوفييت أن يحولوا موقفهم غير الملائم إلى مكسب استراتيجي عن طريق القوة الوحشية السافرة، قد يبدو هذا مثل موقف لاعب الشطرنج إذا خسر قطعتين يمكن مع هذا أن يكسب اللعبة، وإذا كان هذا ممكناً نظرياً فإن النجاح ضد خصم متمكن غير ممكن بالتأكيد. ولم يكن في نية إدارة فورد (كما كانت إدارة نيكسون من قبل) أن تسمح بمثل هذا الانهيار الأساسي.

في غرف المكتب السياسي

في شهر تشرين الأول 1974 تأكد لكلا الطرفين على مائدة المفاوضات في موسكو أن العلاقة القائمة السوفييتية ـــ الأمريكية معلّقة بخيط. فيما كان الوفد المريكي يفهم ماذا كان يدور في الداخل دون أن يكون قادراً على القيام بأي شيء. بدا الزعماء السوفييت، الذين يفتقرون إلى الخبرة في الشؤون الداخلية، مرتبكين ومضطربين. في معظم المسائل ـ عدا الحد من التسلح ـ كان كل فريق يجري في سكتّه، ولم يكن

هناك ما يجري التفاوض حوله غير اتفاقية «سالت». ولعل هذا السبب هو ما جعل الحوار يتحول إلى حوار فلسفي مع الزعماء أكثر من أي شيء آخر.

يوم الثلاثاء صباحاً، في 24 ت1، افتتح بريجينيف المباحثات، بعد الترحيب المرح، في غرفة اجتماعات المكتب السياسي ببيان مفصل حول اهتمامات السوفييت. وضع المفاوض في موقف دفاعي، منذ البداية، كان بالطبع قوام الأسلوب التفاوضي السوفييتي. ولكن عادة تكون لائحة الشكاوى مقدمة لطلبات معينة. في هذه المناسبة لم يقدم بريجينيف أية مقترحات، فقد اقتصر على طلب كئيب لتفسير التصرف الأمريكي:

> ما أود أن أقوله أولاً إننا منذ اجتماعنا الأول حتى اليوم، أعتقد أن الولايات المتحدة ليس لديها أي سبب للومنا عن أي تقصير بالإيمان الكامل في تحقيق التزاماتنا. وهذا شيء لا أربطه فقط باتفاقياتنا بل أربطه أيضاً بالخط العام للسياسة والبيانات الرسمية التي صدرت عني وعن زملائي. لم ندلِ أبداً بأية بيانات تتدخل بأي شكل بالشؤون الداخلية الأمريكية. وحتى عندما كانت هناك بعض الأحداث المعقدة فنحن لم نستغلها أبداً.
>
> قارن بريجينيف مابين الضغط السوفييتي في قضية ووترغيت وبين بيانات وأفعال أمريكية استفزازية. ومع تجنب أي انتقاد مباشر للرئيس فورد، فقد اعترض بقوة على ما قاله جاكسون أمام لجنة MNF [2] لتسوية قضية الهجرة اليهودية. وقال إن السوفييت قد وافقوا على شروط نيكسون لتسوية قرض «الإعارة والتأجير» مقابل «وضع الدولة الأولى بالرعاية». ورغم إتمام شروط الاتفاق، عرض جاكسون شروطاً جديدة بالكامل ولا علاقة لها بعملية التصديق على القرارات التي وضعت لإذلال الاتحاد السوفييتي:

هذا يعني أن جاكسون حقق انتصاراً كبيراً على البيت الأبيض وأنه نجح في استخلاص تنازلات معينة من الاتحاد السوفييتي.

وتابع بريجينيف: إن أرقام جاكسون المتعلقة بهجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي ليس لها أساس من الصحة، وهو سيمدني بإحصاءات دقيقة حول عدد طلبات الهجرة. والنتيجة أن الاتحاد السوفييتي وجد نفسه في موقف مهين لأنه البلد الوحيد في العالم الذي يواجه شروطاً تتعلق بوضع الدولة الأكثر رعاية. بدلاً من المساواة، فإن اتفاقية التجارة الجديدة أكدت تحيّز أمريكا ضد الاتحاد السوفييتي:

> فيما يتعلق بالاتحاد السوفييتي فإن وضع الدولة الأكثر رعاية سيسجل كخطوة خاصة ولمدة 18 شهراً فقط. دعني أقول بصراحة إننا لا نستطيع أن نقبل تلك «الهدية» (وضرب بيده على المائدة). نحن نراها نوعاً من التحيز الذي لا نقبله. أود أن أؤكد ذلك!.

- MNF وضع الدولة الأكثر رعاية ـ المترجم.

شكاوى بريجينيف لم تصل إلى الكونغرس. وقال إن نيكسون وأنا لم نعط الانتباه الكافي لتحذيره في سانت كليمنت في حزيران 1973 أن حرب الشرق الأوسط باتت وشيكة. بعد ذلك ظن أنه تم التوصل إلى تفاهم حول مقاربة مشتركة لمشكلة الشرق الأوسط لنكتشف أننا أُخرجنا، وفرقتم العرب (حسب رأيه):

أنت بدأت جولاتك. وأنت تلاعبت بالبلدان كي تفرق بينها. أعتقد أنك مقتنع الآن أنه لا ينتج شيء من مثل هذه المحاولات.

وكانت شكوى بريجينيف الثانية تتعلق بالخطوة البطيئة للمفاوضات المتعلقة «بمؤتمر الأمن الأوروبي». إذا كانت الولايات المتحدة تريد حقيقة أن تُسرع الأمور، كما قال «فإن أصدقاءكم سينشطون» كنا حقاً نتباطأ كي نحث الضغوط السوفييتية على مسائل أخرى ـ ولا سيما في الشرق الأوسط.

وكانت المفارقة أنه مع تزايد العرقلة حول التجارة والحد من التسلح، كانت مبادرتنا إلى المماطلة في «مؤتمر الأمن الأوروبي» تزداد بالنسبة ذاتها. فهي، بعد كل شيء، واحدة من ذخائرنا التي تتقلص بسرعة فيما بدأ كسياسة نشطة من الارتباط.

دل مدى شكاوى بريجينيف على عدم وجود أساس وطيد للعلاقة بمجملها. بعض الأشياء المثيرة للغضب ـ مثل تعديل جاكسون ـ فانيك ـ كان نتيجة لسياسات أمريكا الداخلية، وبعضها الآخر ـ مثل سياستنا في الشرق الأوسط ـ كان نتيجة لمواصلة الإدارة لاستراتيجية جيوسياسية، أما الأشياء الأخرى ـ مثل مؤتمر الأمن الأوروبي ـ فكانت تعكس التاكتيكات التفاوضية.

أجبت بإطالة مشابهة. فيما يتعلق ببيانات جاكسون، أستطيع أن أؤكد فقط الموقف الذي كنت قد لخصته لفورد بحضور غروميكو. فهمنا لما يتعلق بالرفض النوعي لمعدل لا يزيد على 1.6% الذي طرحه في البداية غروميكو ثم أُعيد تأكيده من قبل دوبرينين باسم بريجينيف. إن رقم الستين ألفاً كان رقم جاكسون وليس رقمنا:

الإدارة ليس لديها موقف آخر. إذا لم يكن هناك مداخلات أخرى (عدا الرفض الطبيعي للنسبة) فإن الإدارة ليس لها الحق في أية اعتراضات (على هذا الموقف السوفييتي).

وفيما يتعلق بالشرق الأوسط، فإنني أضع اللوم كله على غروميكو الجالس على يمين بريجينيف. السياسات السوفييتية لم تكن تتميز عن الأجندة العربية الراديكالية، وكان يُطلب منا أن نقوم بالعمل القذر بفرضها على إسرائيل:

لما كان لا يوجد هناك فرق بين الخطة (السوفييتية) والخطة العربية فلماذا لا نتعامل مع العرب مباشرة؟ لما كانوا جميعاً يسألوننا الشيء نفسه. هكذا واجهنا دوماً صعوبة

كبيرة في فهم ما سيزيد الاتحاد السوفييتي على المناقشة. في الجوهر لقد أيد كل موقف عربي، وفي التكتيكات كنا مضطرين لفرضها على إسرائيل بشكل منفرد.

بكلمات أخرى ما لم ينفصل الاتحاد السوفييتي بعض الشيء على الأقل عن موقف أصدقائه العرب، فإن السياسة الأمريكية التي ترمي إلى تقليص النفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط ستستمر.

وفيما يتعلق بموضوع «مؤتمر الأمن الأوروبي» فأستطيع أن أقدم لبريجينيف بعض الراحة. عرضت أن أكون أكثر فعالية في المفاوضات بحيث ننجزها في حدود سنة، مفترضين أن الاتحاد السوفييتي سيتعاون في تسوية مسألتين: ما يدعى «السلسلة الثالثة» التي تعتبر حقوق الإنسان عنصراً رسمياً للأمن الأوروبي، وتضمين مبدأ أن حدود أوروبا يمكن أن تعدل بوسائل سلمية ـ وهو شرط لازم لتحقيق إعادة وحدة ألمانيا والذي يعتبر الآن كذلك (انظر الفصل 21).

لعل تأكد بريجينيف الظاهر حول المدى من الخطورة الذي وصلت إليه علاقات الشرق والغرب، قد جعله يبدي المرونة التي أظهرها في اجتماعات 24 تشرين الأول. وقبل الغداء، أخذني جانباً كي يؤكد لي أن الاتحاد السوفييتي لم يشجع على حرب عام 1973 في الشرق الأوسط، ولم يكن لديه إلا معلومات بسيطة جداً مقدماً عنها. ولما كان الخبراء الروس قد طردوا من مصر عام 1972، فإنه كان لدى موسكو أقل من ثلاثة أيام للتحذير من حرب وشيكة. وزعم بريجينيف أنهم ما كانوا يستطيعون أن يخبرونا خشية أن ننقل المعلومات إلى إسرائيل، مما يُحفّز الإسرائيليين على هجوم استباقي، وهو ما سيهدد مركز الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط. بيد أن السوفييت اتخذوا إجراءات أخرى لتنبيهنا ـ ربما انسحاب الرعايا السوفييت من سورية ومصر قبل 48 ساعة من بدء الحرب. وإذا كانت هذه إشارة مقصودة فقد أسأنا فهمها بالتأكيد في ذلك الوقت ـ وهذا مثل واضح حول كيفية صياغة الإشارات المستوعبة للسياسة ـ إذ إننا استبعدنا ببساطة إمكانية هجوم عربي على اسرائيل[6].

هذا الكشف غير العادي من جانب بريجينيف كان يُقصد منه بالدرجة الأولى خلق مزاج لمجموعة من الأسئلة يود طرحها بعد أن انضم خبراؤنا إلينا فيما يتعلق بنوايا أمريكا بعيدة المدى:

ماذا تعني، وكيف ينبغي أن يكون رد فعلنا إزاء بيانات تصدر عن مسؤولين أمريكيين مختلفين، ومن بينهم بعض المسؤولين في الحكومة بأن الولايات المتحدة ينبغي أن تكون الدولة الأولى من حيث القوة وعندئذ فقط سوف يتوفر السلام في العالم؟ (صحح دوبرينين الترجمة بـ «الدولة الأقوى من الجميع») كيف نفهم مثل هذه البيانات؟..

لا تتطلع إلى المعلومات في مذكراتك، إنه أمر ينبغي أن يطرح.إنه شيء أردت أن أطرحه منتهزاً فرصة هذا اللقاء الشخصي.

سؤالي الثاني هو، لما كنا سنعالج غداً مسألة الأسلحة الاستراتيجية: هل تعتقد أو تقر بإمكانية حرب ذرية بين دولتينا؟ أو امكانية حرب ذرية في أي مكان في العالم، في أوروبا مثلاً أو أي مكان آخر؟ بسماعك كلامي فأنت معنيّ بأن تسألني عن رأيي. حول تلك الفكرة أتمنى لك أحلاماً سعيدة.

كانت المناقشات الفلسفية نادرة جداً حقاً، فهم يفضلون عادة أن يشقوا طريقهم من خلال جدول أعمال أُعد أساساً لوثائق تفاوضية محددة. ولكن في هذه المناسبة ـ التي لم تتكرر أبداً ـ قدم بريجينيف حقاً فرصة لتفسير جدي للعقيدة الاستراتيجية الأمريكية.

بدأت اجتماعات اليوم التالي بمناقشة مطولة تتعلق بالمفاهيم أساساً قلت إن الجدل حول مؤسسة عسكرية «هي الأولى» كان حول التعادل أكثر مما كان حول التفوق. مثل هذه الشعارات لم تكن سبباً للجمود في مفاوضات الحد من التسلح. الصعوبة الحقيقية أنه مع مرور السنين ظهرت قوتان استراتيجيتان، كل واحدة منها تقوم على أساس مقاصدها التي تختلف تماماً عن مقاصد الأخرى. القوة الاستراتيجية الأمريكية مفيدة بالدرجة الأولى للردع في حين أن القوة السوفييتية الناهضة قد صممت لمهمة الضربة الأولى:

لقد أشار الأمين العام كثيراً إلى عدد الرؤوس الحربية التي نملكها ولكن الأمين العام يعرف أيضاً أن الأغلبية الغالبة لهذه الرؤوس - قرابة الثلثين - مُركبة على الغواصات. وهو يعرف أن حجم الرؤوس النووية في الغواصات صغير نسبياً. وأخيراً فإن الأمين العام يعرف أنه من أجل أن تنسق هجوماً من الغواصات منتشرة في كافة أرجاء المحيط. لتنسيق هجوم فعال. أمر صعب جداً مما يجعله مستحيلاً والحق أنني أعتقد أن الأمين العام ينبغي أن يفهم أن عدد الرؤوس النووية في الغواصات هو رد فعل على البرنامج السوفييتي، لقد طُوّرت عندما أردنا أن نكون قادرين على التسلل عبر دفاعات الصواريخ المضادة للبلاستيكية، وكنا نريد أن يكون لدينا رؤوس نووية كافية على الغواصات للمحافظة على هذه الدفاعات.

وقلت إن البناء السوفييتي، على العكس من ذلك، كان يخلق إمكانية تهديد قواعدنا الأرضية عندما أصر بريجينيف على أنه «ليس لدينا نية في مهاجمتكم» أجبت بأن نيته لا صلة لها بالموضوع:

أنا لا أقول إنَّ عندكم النية، ولكن من الواضح أن لديكم القدرة..

عندما ننظر إلى القوة السوفييتية نلاحظ بعض الظواهر المقلقة

obeikandi.com

فصواريخكم أكبر من صواريخنا، والرؤوس الحربية لكل صاروخ أكبر مما عندنا... تصميم قواتكم الاستراتيجية يجعلها تمثل تهديداً خطيراً جداً لقواتنا الأرضية، سواء كنتم تخططون لهذه الغاية أم لا. في هذا الجيل، لنقل حتى عام 1981 أو 1982 ما زلتم لا تملكون. رؤوساً حربية بقدر ما نملك. ولكن هذا لا صلة له بالموضوع أساساً إذ بعد نقطة معينة لن يكون لديكم استخدام معقول لها. ولكن بعد عام 1981 أو 1982 تستطيعون أن تضاعفوا عدد رؤوسكم الحربية لأن لديكم تلك القوة الهائلة (الشحنة المتفجرة).

لم يفترض تحليلي مقاربات متوازية للتحليل الاستراتيجي أو توسيع التطمينات المتكررة حول نوايا أمريكية بالطريقة التي يقوم خبراء مراقبة التسلح في إدارة ليبرالية بها. إنها قريبة جداً من آراء المحافظين الجدد. ما أختلف فيه مع المحافظين والمحافظين الجدد هو الاستنتاج. فمنطق موقف جاكسون هو استخدام مفاوضات الحد من التسلح لإرغام السوفييت على إعادة تصميم قواتهم وفقاً للصورة الأمريكية. نحن في إدارتي فورد (ونيكسون) حكمنا على هذا بأنه غير ممكن (ولن يتحقق من قِبل أية إدارة لاحقة). بدلاً من ذلك سعيت إلى إغراء السوفييت بالتحفظ عن طريق تحذيرهم بأنه إذا لم يتحقق التوازن الاستراتيجي، فسيكون البناء العسكري الأمريكي الهائل حتمياً. وقلت:

اذا كنا في وضع مناقشة غير متكافئة بشكل أساسي عندئذ سنحمي أنفسنا ضد الأخطار التي وصفتها لكم وليس هذا لأغراض التفوق، بل لأغراض الدفاع. سوف نبني عندئذ صواريخ أكبر كثيرا. وربما بأعداد أكثر وأنتم تتذكرون اذا عدتم إلى أواخر الخمسينيات، أن الأمين العام السابق لكم قام ببعض التهديدات تنبع ربما من طبيعته المتهورة. عندما تصورنا أننا مهددون بفجوة صاروخية محتملة شرعنا ببرنامج واسع جداً لانتاج الصواريخ ينتج بضعة آلاف من الصواريخ في أعوام قليلة.

لم يناقض بريجنيف تحليلي ولم يؤكده. بدلاًمن ذلك أكد أن الاتحاد السوفييتي لن يبادر تحت أية ظروف إلى حرب نووية. والحق إن من الصعب أن تصدق أن أولئك الذين نجوا من أهوال ستالين يمكن أن يقودوا أنفسهم إلى مخاطر وقلاقل مغروسة في هجوم نووي شامل على الولايات المتحدة التي من الواضح جيداً أنهم يخشونها. بيد أن مثل هذه الانطباعات لاتخفف من قلقنا من كيفية رد فعل السوفييت تجاه الاتجاهات العددية والتقنية بعد عشر سنوات، عندما يستكمل نشر رؤوسهم المتعددة ويمكن لمجموعة مغامرة من القواد أن يأتوا للحكم في الكرملين. قلت لبريجينيف:

هل أؤمن باحتمال حرب نووية بيننا؟ أنا لاأعتقد ذلك بالقوى الحالية، حيث يمكن لقائد أن يتخذ قراراً عقلانيا بشن حرب شاملة على الآخر... فبعد كل شيء، في كل حرب، الخطط

العسكرية لهذا الطرف أو ذاك يمكن أن تصبح خاطئة. وفي حرب نووية حرارية ينبغي للقائد العسكري أن يقنع القائد السياسي أن الصواريخ التي لم تطلق من قبل ولم تجرب وقتها ضد أهداف حقيقية، يمكن أن تطلق على أهداف لا يعرف مقدار صلابتها، وتأكد أن الأهداف لن تقذف للتحذير. وأعتقد أن هذا يتطلب درجة من الثقة يصعب تحقيقها.

من جهة ثانية، من المفهوم أنه إذا استمرت التوترات المحلية، وإذا نشب نزاع محلي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وتطور نظراً للترسانات الموجودة لدى كلا الجانبين، فإن مثل هذه الحرب قد تنشب حتى بدون قصد. لأنه من المحتمل أن كل جانب لن يجعل نفسه عرضة للهزيمة.

رفض بريجينيف بصورة عاطفية الافتراض أن الحرب النووية ممكنة ولو على المدى البعيد:

إذا وجهت إلي سؤالي نفسه، إذا ما كنت أعتقد باحتمال نشوب حرب نووية بيننا، سأجيب بأنني لا أؤمن بهذا الاحتمال. سأقول إنه بغض النظر عمن يترأس الإدارة الأمريكية، لأن الأمر لا يعتمد على من يقود البلاد بل يعتمد على شعب البلاد. ونظراً لوجود كثير من الناس، بمن فيهم العلماء، يعرفون ماذا تعني مثل هذه الحرب وكم عدد من سيموتون. لذا أنا لا أتصور احتمال أن يُقدم أي طرف على اتخاذ قرار الشروع بحرب كهذه، أو احتمال نشوب مثل هذه الحرب.

يا له من تناقض عكسي في الأدوار! ممثل مجتمع براغماتي يفتقر إلى التقليد الجيوسياسي واثق بقدرته على تحويل مجرى التاريخ يقول إن زخم التقانة والاستراتيجية يمكن أن يفرز كارثة بغض النظر عن النوايا الشخصية إلا إذا اتخذت بعض الخطوات الآن. ومن جهة ثانية فإن الأمين العام لنظام شيوعي يقوم على مبدأ أن الحتمية التاريخية والعوامل المادية تتقدم دوماً على القناعات الشخصية، يفترض مهما كانت الأخطاء، أن الخوف في النهاية من حرب نووية سوف يجعل القادة يقاومون ضغوط العوامل المادية.

خطوة نحو الاختراق

عندما التفتنا أخيراً إلى اتفاقية (سالت) عشية 25 ت1، في اليوم الثالث لزيارتي اختفت الفلسفة بسرعة في ثنايا الجدل المعتاد حول مستوى الأسلحة النووية المطلوب من أجل «أمن متكافئ». كان الاهتمام الغالب لكلا الطرفين نفسه: حماية برامجه الاستراتيجية القائمة، والتي جميعها وضعت قبل أن تبدأ مفاوضات الحد من التسلح. بهذا المعنى، فإن الهدف الأساسي لاتفاقية «سالت» هو وضع بعض القيود يستمر ضمنها التنافس على الأغلب ـ ولكن بخطى أقل تهديداً.

كان فـورد فوضني أن أعيد التأكيـد على خيار الموازنة اللاامتماثل ـ منصات الإطلاق الروسية مقابل التقدم الأمريكي في الرؤوس الحربية ـ الذي وضعه نيكسون أثناء اجتماع القمة الأخير في حزيران. ولكن من أجل أن نتجنب الجدل الداخلي حول ماذا يشكل المساواة، أعطاني فورد تعليمات أن أحول الحوار إلى موازنة على مستوى 2500 منصة و 1320 صاروخ MIRV كما كان البنتاغون يلح في الطلب.

أبدى بريجينيف دهشته لتحولنا عن التوجه الذي كان يحضّ عليه نيكسون وأنا قبل أربعة أشهر فقط. إذا مـا توجهنـا إلى التراجـع عن هذا السبيل، فإننا سنعـود إلى الجدال السوفييتـي التقليدي بأن القوات النوويـة الفرنسية والبريطانية ينبغـي أن تُدرج في المجموع وأن السوفييت يطلبـون بعض «التعويض» عن قواعدنـا عبـر البحار حيث تستطيع القاذفات ـ المقاتلة أن تصل إلى عمق الأراضي السوفييتية. وقد عزز بريجينيـف هـذه النقطة الأخيرة بـأن طلب من أحد كبار ضباطـه العسكريين أن يصـوروا بالسهام على خريطة كبيرة طرق الهجوم المحتمل من قواعدنا عبر البحار.

قررنـا أن نضع هذه المسألة جانباً وأن نركز أولاً علـى تأسيس أسقف متفق عليها. اقترحت سقفاً من 1320 عربـة MIRV بما مجموعـه 2200 منصة إطلاق، بما في ذلك الطائـرات. ورغم أنني كنت مفوضاً بـأن أجعل الرقم 2500، فقد اخترت الرقم 2200 لأنه كان أقرب إلى المجموع المخطط من قبلنا ويتطلب تخفيضاً من جانب السوفييت بمقدار 450 من مجموع ما لديهم وهو 2650. ومن الغريب أن أعداد MIRV ـ التي تعكس بدقة برنامجنا المخطط مع غواصتين إضافيتين من نوع ترايدينت الموزعة لدواعي الأمان. قد لقيت القبول على الفور بدون سؤال. هل كان من المعقول أن تكون قوة السوفييت العسكرية بالطائرات مماثـلاً لمـا لدينا؟ أم هـل اعتقد الجنـرالات السوفييت أنهم لن يصلـوا إلى ذلك المجمـوع ضمن فترة السنوات العشر للاتفاقية؟.

بالنسبة للسقف الكلي 2200، دهش جيورجي كورنينكو، الذي كان آنذاك رئيس قسم أمريكا في وزارة الخارجيـة السوفييتية، الذي كان يحدد الأرقام للوفـد السوفييتي، كيف يمكن أن نصل إلى هذا المجموع. بموجب «سالت ـ 1»، كان من المسموح لنا، كما قال، بـ 1640 صاروخاً فقط، ولم يكن لدينا قاذفات كافية لمـلء القـوة المقترحة وهـي 2200، وكان رأيه أنني من وجهة نظـر ذهنية دقيقة فضلـت تكافؤ المقاربة العددية. هل كنا نستخدم اتفاقية «سالت» لتبرير البناء كما تساءل كورنينكو. والحق أن الوضع كان أسوأ مـن ذلـك. فالبنتاغون كان يخطـط لبناء غير عددي، ولم يقتـرح واحداً فـي الإدارات المتعاقبة. ما كان يشغلنا أن نهدئ الاضطرابات الداخلية.

لمـا كنت لا أوافـق على هذا، أثرت مجادلة حول كيف يمكن أن نصـل إلى ما مجموعه 2200 وشرحت أن القاذفـة الاستراتيجيـة ب ـ 1 سوف تدخل قريباً في قواتنا (وهي طائـرة لم تتضمنها اتفاقية سالت ـ 1)، وعرضـت برحابـة صدر الحد من طائـرات ب ـ 1 إلى 250 كمساهمة فـي اتفاقية سالت. وكانت هذه

obeikandi.com

إحـدى الحيل لأنني كنت أعرف ـ والسوفييت لا يعرفون ـ أننا كنا نخطط لبناء 240 قاذفة فقط. (والواقع أننـا طيلـة أكثـر من عقدين ـ بما في ذلـك فترة إدارة ريغـان «الصقرية» ـ لم نضـع إلا 100 طائرة بسبب عوائـق فنيـة وإدارية وعوائق من الكونغرس)، أشار بريجينيف أنـه إذا كان السقف 2200 فعلى السوفييت أن يستبعـدوا 200 صـاروخ حديث بالإضافـة إلى 210 صواريخ قديمة استبعدت بموجـب اتفاقية «سالت ـ 1». فـي إطار عالم اتفاقية «سالت»، كانت هذه خطوة مشجعة لأن بريجينيف كان يعترض فقط على العدد وليـس على مبدأ تساوي الأعداد لدى كل طرف. تعزز إحساسي الباطني لأن الاجتماع الذي كان مقرراً مع بريجينيف في الصباح التالي قد ألغي بحجة أن «المكتب السياسي» كان يعد اقتراحاً جديداً.

طـرح بريجينيف خطة سوفييتية جديدة فـي 26 ت1 أي قبل 12 ساعة من موعد مفارقتنا موسكو. في واحـدة من المناسبات النادرة التي يصغي فيها السوفييت إلـى توضيحات مفاوضيهم، اقترح بريجينيف اتفاقيـة لمدة 10 سنوات، تنتهي عام 1985، مفترضاً أنـه وفورد قد وصلا إلى اختراق في فلاديفوستوك. السقـف الكلـي للمنصات القاذفـة وعددها 2400 منصة سيثبـت. وستوافق الولايـات المتحدة على عدم بنـاء أكثر من 2200 منصة إطلاق حتى سنة واحدة قبل انتهـاء الاتفاقية. وسوف تدخل القوات الفرنسية والبريطانية في عداد المجموع الأمريكي ـ مما يعني أن السقف المؤقت أصبح دائماً.

كان الطرفان يقتربان من اختراق كبير. ومن حيث المبدأ رفضت الاقتراح القائل بضم القوات النووية الفرنسيـة والبريطانية إلـى مجموع قواتنا. ولكن من أجل الهدوء في الداخل حولت طريقة المرحلتين إلى أرقام نهائية وهي ما كان يناسب برنامجنا الفعلي.

ومـع هـذا فإن موضوع المساواة (التكافـؤ) كان يمكن أن يستغرق النهار كلـه، وشعرت أن بريجينيف سوف يوافقُ في النهاية. ولما كنت أخطط لزيارة الهند في أقل من 12 ساعة، ولم يكن هناك وقت لاجتماع آخـر مـع المكتب السياسي، اقترحت إرجـاء القضايا الباقية حتى لقـاء فلاديفوستوك. وفي غضون ذلك سأحـاول أنـا ودوبرينين أن نضيـق فرجة الخلافات. وما كنت أتـرك المسألة مفتوحـة إلا إذا اقتنعت أن بريجينيف سيوافق في النهاية.

كان من الواضح أن بريجينيف ينوي أن ينهي الموضوع في فلاديفوستوك بشروط مقاربة لشروطنا من طريقة تعبيره عن موافقته على اقتراحي:

> أوافـق معكـم بشرط واحد: مهمـا كانت التعديـلات التي تجـري فإنها لـن تمس طبيعة الاقتراحـات الجوهرية الجديدة أو مبدأ جديداً، لأننـي لا أريد للاجتماع ـ الأول الآتي مع الرئيس أن يبدأ بنزاع.

بـدا لـي لبرهة أنه علـى الرغم من القلـق الداخلي كنا علـى حافة الوصول إلـى اتفاقية SALT، وبرنامـج لعقد «مؤتمـر الأمن الأوروبي». ومع هذا فقد كان لدي شعور بالقلق بأن

جاكسون وحلفاءه سينجحون بطريق ما في رفض الموافقة على مراقبة التسلح. وكان بريجينيف بدوره مسكوناً بهاجس داخلي بوقوع اضطرابات قادمة وحذرني بطريقة مهذبة (بالمعايير السوفييتية) بأن هناك حدوداً للصبر حول جدلنا الداخلي:

أرجو ألا تنسى جوهر هذه المناقشة حول الصواريخ فحسب، بل وما ناقشناه في اليوم الأول. أعرف أنك لم تنس، ولن تناقش حول هذا أكثر من ذلك. لقد حاولت أن أعرض موقفنا بوضوح قد الإمكان.

سيادة نووية مشتركة

أظهرت حادثتان قبل أن نغادر موسكو إلى أي مدى ما تزال العلاقة محفوفة بالخطر على الرغم من كل الدفء والتقدم في اتفاقية «سالت»: الرفض الأمريكي الذي سببه بريجينيف لنفسه، والثانية الحرج الذي وقع فيه الزوار الأمريكيون بسبب سياسات بلادهم الداخلية.

نجم صد بريجينيف عن محاولة الأمين العام التقاط خيط للقاء خاص مع نيكسون قبل أربعة أشهر أثناء قمة حزيران 1974. في تلك المناسبة كان بريجينيف قد اقترح أن تقيم القوتان النوويتان العظميان ما يصل إلى وصاية نووية على بقية العالم. وبعد أيام قليلة، وفي حفل غداء أعده نيكسون في «سباسو هاوس»، مقر إقامة السفارة الأمريكية، دعاني الرئيس وكان بريجينيف جالساً إلى جنبه، وذكر اقتراح الزعيم السوفييتي. وكان مضمونه في الواقع أن يتعاون البلدان في وقف أية طموحات نووية لأي بلد بالموافقة على العمل معاً عسكرياً ضد أي بلد يستخدم الأسلحة النووية. اعتبر نيكسون تلك الفكرة بأنها «فكرة مثيرة للاهتمام» تُبحث بالتفصيل بيني وبين دوبرينين أو غروميكو فيما بعد[7]. مبادرة بريجينيف حول هذه الوصاية النووية المشتركة كشفت مدى اهتمامه بشأن عزلة موسكو وتطلعه إلى قلب المائدة على بيجينغ.

أولئك الذين يعرفون نيكسون جيداً قد يفهمون أن هذه الوصاية الدرامية في حفل عشاء لا تعني الكثير ــ إنها تتوافق مع عدم قدرته أن يرفض شيئاً أمام مفاوضه وجهاً لوجه مع عدم رغبة لمتابعة الموضوع لم يكن لدينا حافز مقبول للمخاطرة بعلاقاتنا مع الصين التي لا تزال ضعيفة وفي بدايتها للدخول في صفقة ثقيلة مع موسكو. لم أتخذ أي إجراء وانتظرت أن يوضح لي نيكسون نواياه، وبعد بضعة أسابيع استقال نيكسون بدون أن يذكر هذا الموضوع ثانية (ولم يناقشه معي أبداً فيما تبقى من عمره). كما أن دوبرينين لم يعد إلى الموضوع أبداً. وعندما أطلعت فورد على الموضوع، أعربت عن أملي بأن يُطوى اقتراح بريجينيف مع استقالة نيكسون.

لم أقدر تشبث بريجينيف (أو ربما سذاجته). فالآن، في ليلتي الأخيرة في موسكو، دعاني إلى لقاء خاص في مكتبه في الكرملين قبل مناقشات اتفاقية (سالت) ودعا إلى مناقشة الموضوع. ولم يحضر

ذاك الاجتماع إلا وزير الخارجية غروميكو من الجانب السوفييتي وهال سونينغيلدت من جانبنا، إلى جانب المترجم اللامع فيكتور خودريف. ومن أجل أن أنقل طريقة تفكير بريجينيف أستشهد بهذا المقطع من محادثاته الأولية مع نيكسون:

ألا نستطيع الاهتمام بإمكانية بلدينا اللذين يملكان في المستقبل المنظور قوة هائلة، وبخاصة في المجال العسكري، بتحقيق معاهدة بصيغة ما، في صالح البشرية كلها، وأن نضع في اعتبارنا تهديد الأسلحة النووية لكل الجنس البشري، بحيث إذا قام طرف ثالث بهجوم على أي طرف منا ـــ نستطيع أن نسميه ـ يستخدم كل طرف، من أجل مصلحة الحفاظ على السلام، القوة العسكرية دعماً للطرف الآخر. وهذا ينطبق أيضاً على الحلفاء ـ كهجوم على «ألمانيا الغربية» أو إيطاليا ـ سوف نهب لمساعدتهم أيضاً. من المؤكد أن هذا سيكون تحذيراً ضد أولئك الذين يغريهم استخدام الأسلحة النووية ضدنا أو ضد حلفائنا جميعاً.

في ذلك الوقت أشار الرئيس نيكسون إلى أنه يعتبر هذا الموضوع مثيراً للاهتمام وبدا أنه يؤيد ما يتضمنه. وأضاف أنه مهتم بالفكرة وأنه بعد شهرين سيكون قادراً على الإجابة على اقتراحاتي. لم ندخل في تفصيل أوسع وما قلته كان في الواقع اقتباس ذلك الحديث. أعطيك كلمتي، وكلمة سوخودريف (مترجم بريجينيف) وهو مسؤول عن حياته، بأنني لم أطلع أحداً على مذكرة هذه المحادثات لأي شخص.

نظراً للطبيعة البطيئة للإجراءات السوفييتية البيروقراطية (فضلاً عن الآليات البطيئة) يمكن أن تعتبر حياة سوخودريف نموذجاً لأساس التصريح الأخير. ولكن مهما كان الاقتراح معروفاً لدى الطبقة الحاكمة السوفييتية، فإن معناه أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي سيكونان مُلزمين بمساعدة أحدهما الآخر إذا ما تورط أحدهما مع قوة نووية أخرى. وعلى وجه الخصوص، فإننا لن نقف مع الاتحاد السوفييتي إذا ما تورط في حرب مع الصين، بل ينبغي أن نفعل ذلك بوصفه أحد حلفائنا المقربين، مثل بريطانيا وفرنسا، ونستخدم الأسلحة النووية ضده رداً على هجوم سوفييتي تقليدي.

اتخذ الحوار منعطفاً غريباً عندما حاول بريجينيف باستماتة أن يجعل من قطعة مدفعية صغيرة على شكل لعبة تقذف شحنة منفجرة. والحديث التالي يوضح ذلك:

كيسنجر: أنا لم يهاجمني أبداً الأمين العام.

«وجه بريجينيف انتقاده، نحو سونينفيلدت».

غروميكو: يجب أن تجربه على وزير خارجيتكم وألا تخيف الأمريكيين.

«يضع بريجييف رصاصة في المسدس ويشد الزناد. لم يحدث شيء».

بريجينيف: ينبغي أن أطلب من السادات الاحتياطي.(❖)

في هذا الجو، الذي أصبح فجأة تآمرياً وتهريجياً، كنت مضطراً أن أصوغ إجابة ما على اقتراح بريجينيف. نحن لا نستطيع أن نقبل بذلك بدون تدمير «التحالف الأطلسي» وننهي انفتاحنا على الصين، ونعزل أنفسنا عن العالم. والحق إذا كان بريجينيف يأخذ الأمر على محمل الجد، فإن الطريقة الوحيدة لأي بلد تستطيع أن تهرب من الوصاية الأمريكية ــ السوفييتية عليها أن تقطع علاقتها بقوة عظمى، ولن يكون أمامها إلا حركة عدم الانحياز. لذا أجد نفسي مضطراً إلى طرح أسئلة حول الظروف التي سيطبق فيها الاتفاق. وفي الوقت نفسه لا يُنصح بممارسة دبلوماسية يتحدث فيها عن قلب رئيس الحزب الشيوعي في غرفة اجتماعات المكتب السياسي مع موظف كبير. لذا أجد نفسي مضطراً إلى القول بأن الموضوع ينبغي أن يحال إلى الرئيسين (والصحيح أنني لم أناقش مع فورد حول هذا الموضوع قبل أن أغادر):

إنها معالجة شاملة ويصعب الوصول إليها. كنت قد أخبرت فورد عموماً بوجود مناقشات بينكم وبين الرئيس نيكسون. سأناقش الموضوع مع الرئيس عندما أعود وبالطبع قبل فترة من اجتماعكما في فلاديفوستوك.

كان من الصعب معرفة ما الذي جعل بريجينيف يطرح هذا العرض. كان غروميكو على درجة كافية من الخبرة بحيث يعرف أنه لا يصلح، خلافاً للإجراء السوفييتي المعتاد حيث لا ينفك الموظفون التابعون عن معارضة الأمين العام، فإن غروميكو ودوبرينين لم يناقشا الموضوع مطلقاً إلا إذا كان بريجينيف حاضراً ويقود المناقشة. ولم يترك ردي الفاتر مجالاً للشك ـ بين المحترفين بالطبع ـ أن الاقتراح لن ينتج شيئاً حتى في فلاديفوستوك، والذي كما سنرى، لم يمنع بريجينيف من إثارته مرة أخرى ـ ليس مرة واحدة بل مرتين.

ماذا كان بريجينيف حقيقة؟ باحثاً عن الانفراج وتطبيع العلاقات؟ أم مناوراً بارعاً يقترح وصاية عالمية سوفييتية ـ أمريكية من أجل أن يخرب تحالفات أمريكا وعلاقاتنا مع الصين؟ لعل كلا الاحتمالين وارد، بمناسبة اجتماعنا كان بريجينيف بالتأكيد تقريباً لا يعرف أيهما الأرجح. هل الاستمرار في تخفيف حدة التوترات قد جعله يؤكد على الإصلاحات الداخلية، وامتصاص الطاقات السوفييتية نحو مسائل داخلية، ويكتشف، كما تعلم ميخائيل غورباتشيف، عدم توافق النظام السوفييتي مع الاقتصاد العالمي الحديث؟ أم أنه يناور من أجل سياسات عدوانية؟.

(❖) السوفييت المنزعجون من تردي نفوذهم في مصر، كانوا كثيراً ما يطلقون تعليقات ساخرة تجاه أنور السادات، وفي مناسبة أخرى أطلق عليه غروميكو وصف (جمل من ورق).

لـن نعرف أبداً، رغم أنني أشعر ببعض الحـزن لإخفاقنا في اكتشاف الغاية. في النهاية فإن الانفراج بات عديم الجدوى بسبب الخلافات الداخلية الأمريكية، وعدم قدرة بريجينيف على مقاومة إغراء السعي إلى استغلال مشكلاتنا الداخلية بعد أن أخفقت الاتفاقية التجارية وغاصت اتفاقية «سالت» في الرمال.

مـا حـدث أن الجلسة التي أنذر فيها بريجييف باختراق اتفاقيـة «سالت» قد قُضمت من كلا الجانبين بمناقشـات أدت في النهاية إلـى نسف علاقة الشرق بالغرب: بدأت بعرض مـن قوة عظمى نووية بوصاية بعرض للمطامح العالمية السوفييتيـة وتتبعها مناقشات خاصة بمبادرة من الأمين العام (للحزب)، حول تعديل جاكسون ـ فانيك التي تؤكد على عدم التماسك الداخلي الأمريكي.

بعـد الـوداع الرسمي، أخذني بريجينيف جانبـاً لحديث خاص آخر. يجب ألا أُسيـئ الفهم، كما قال، مهمـا كان موقـف المكتب السياسي شديداً حيال تصرف جاكسون. من بيـن المائة دولة المؤهلة لعضوية «صنـدوق النقـد الدولي» ـ MNF، كان الاتحـاد السوفييتي وحده يتمتع بمعاملـة استثنائية، لا بسبب تقيد الصنـدوق بممارساتـه الداخلية، بل بالاشتـراط بمراجعة سنوية. واستمر جاكسـون وبريجينيف بإعلان أرقام للهجرة لا تتفق مع ما قاله القادة السوفييت لنا. الحقيقة القائمة على تشريع داخلي سوفييتي، وهي أنـه لـن يرفض أكثـر من 1.6% من الطلبات لا تتضمـن التزاماً بضمان عدد معين مـن المهاجرين. هل كان جاكسـون يريد مـن الاتحاد السوفييتي أن يشرع بطرد بعض مواطنيه من أجل أن يلبي أهدافاً وضعها الكونغرس الأمريكي، كما تساءل بريجينيف. هل كان غرض جاكسـون أن يُظهر أنه أرغم السوفييت على الاستسلام في مسألة يُعترف بها دولياً على أنها مسألة تتعلق بالتشريع الداخلي للبلد المعني؟.

سقـط الحذاء الآخر في الصباح التالي، في 27 ت1. فـي الطريق إلى المطار سلّمني غروميكو رسالة مؤرخـة في اليوم السابـق. كانت وثيقة غريبة، لم تكتب علـى أوراق وزارة الخارجية، بل على ورقة عادية، كما لو أنها كانت رسالة عادية. في هذه الورقة رفض غروميكو رسمياً موضوع تبادل الرسائل مع جاكسون والتي تحرر في البيت الأبيض. وذكّرني بأن القيادة السوفييتية قد استجابت لـ «رغباتي» لتحرير ممارسات ترتبط كلياً بـ «الشؤون الداخلية لبلدنا، ورفض غروميكو» بشكل قاطع أي تفسير يظهر «كنوع من التاكيد أو التعهد» وتتضمن «الأرقام التي ذكرت فيما يتعلق بالعدد المقترح»..[8]

ما كنت أحذر منه منذ حوالي سنتين قد حدث أخيراً. عندما استلم فورد السلطة كان الاتفاق التجاري جاهـزاً للموافقـة، ومستوى مـن المهاجرين اليهود يبلغ عددهـم 45 ألف رجل كان قـد تعهد به غروميكو وصادق عليه بريجينيف. الآن يتملص السوفييت رسمياً، وكتابياً، مما كان تفاهماً ضمنياً. ضغوط الكونغرس قـد أرغمتنا على أن نحـاول سد الفجوة بصيغة معقدة على هامش ما هو ممكـن. فتصميم جاكسون على تغييـر هـذه الصيغة المتفـق عليها إلى التزام وكي يشير إلـى أسلوب يفوق أسلـوب الإدارة في التعامل مع السوفييت كان على وشك إسقاط اتفاق التجارة وخنق الهجرة اليهودية.

مغادرتنا لموسكو صباح 27 ت1 قد تكون أو لاتكون رمزية. زوجتي نانسي أضاعت حذاءها واضطر مساعدي بول بريمر (جيري) على إعارتها حذاءه حتى نصل مع أمتعتنا إلى الطائرة. وأستطيع أن أتخيل شعور مضيفينا السوفييت في المطار وهم يرون زوجتي الأنيقة عادة جداً تلبس حذاء رجل من المساعدين لي. الانتقادات التي واجهناها في موسكو كانت بأن نفقد قمصاننا. ولكن ليس أحذيتنا.

obeikandl.com